﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تفكير العاطفة للآباءِ، إلى التَّفكير القائم على الحقِّ والعقلِ السَّديد

لَمّا نهاهُم صالحٌ عليه السلام عنْ عبادةِ ما كانَ يعبدُ آباؤهُمْ، وأمرهم بأنْ يكونَ التّوحيدُ شعارَهُمْ، لاموه على ذلكَ وأظهروا لهُ منْ قبيحِ تعريضِهمْ بدعواهُ تلكَ، "ولّما أبرزوا لهُ أمرَهمْ في قالبِ الشّكّ على سبيلِ الجزم، قابلهُمْ بمثلهِ على سبيلِ الفرضِ إنصافًا لهمْ لئلّا يلائمَ الخطابُ حالَ المخاطبينَ"[1]، فإنّ دعوتهُ إنّما تنطلقُ من أنّها مؤيَّدةٌ بالبيّنةِ والحجّةِ والبرهانِ المقترنِ بالرّحمةِ، وأنّه إن لم يفعلْ ذلكَ باتّباعكُم أو الكفّ عمّا يدعوكُم إليهِ فقدْ عصَى الحقّ سبحانهُ ولنْ يزدادَ آنئذٍ إلّا خسارًا، فالمناسبة بين الآيتين مُفادها الانتقال من منهج التَّفكير القائم على التَّعصب لعبادةِ الآباءِ، إلى منهج التَّفكير القائم على الحقِّ والعقلِ السَّديدِ للوصولِ إلى الهداية الرَّبانيَّة، وفي هذه المناسبة تلطُّفٌ في الخطابِ، واستنزالٌ للمخاطَبين، وهو ما يدلُّ على الحكمة والبصيرةِ في الدَّعوة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: أصلُ الكلمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ. فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنُونَةً. والبَيُونُ البِئْرُ البَعِيدَةُ القَعْرِ[2]. والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

ومنه: (البَيِّنةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح. والبَيِّنةُ: الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[1]. والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[2]. والمقصود بالبيِّنة في الآية: الحُجَّة الواضحة[3].

2) ﴿رَحْمَةً﴾: أصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقّةِ والعطفِ والرّأفةِ، يُقالُ من ذلك: رحِمهُ يرحمُهُ، إذا رقّ له وتعطّف عليه. والرّحِمُ: علاقةُ القرابةِ، ثُمّ سُمِّيت رحِمُ الأُنثى رحِمًا من هذا؛ لأنّ منها ما يكونُ يُرحمُ ويُرقُّ له من ولد[4]. والرّحمةُ: اسمُ مصدر لِصفةِ الرّاحِم وهي من صِفاتِ الإنسانِ فهي رِقّة في النّفسِ تبعثُ على سوقِ الخيرِ لِمن تتعدّى إليهِ[5]. وإذا وُصِف به الباري ﷻ فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دون الرِّقّة، وعلى هذا رُوي أنّ الرّحمة من اللّه إنعام وإفضال، ومن الآدميِّين رِقّة وتعطُّف[6]. والرّحمةُ أيضًا: القرآن[7]، والمغفِرةُ[8]، والنُّبوة[9]، والمراد بالرّحمة في الآية: النُّبوّة والحِكمة[10].

3) ﴿يَنصُرُنِي﴾: أصلُ (نصر): يدُلُّ على إتيانِ خير وإيتائِهِ. يُقالُ: نصر اللّهُ المُسلمين: آتاهُمُ الظّفر على عدُوِّهِم، ينصُرُهُم نصرًا. وانتصر: انتقم، وهُو منهُ. والنّصرُ: عونُ المظلوم[11]. والنّصِيرُ فعِيل بِمعنى فاعِل أو مفعُول؛ لأنّ كُلّ واحِد من المتناصِرين ناصِر ومنصُور. والاستِنصارُ: استِمدادُ النّصر. والتّناصُر: التّعاونُ على النّصر[12]. وأمّا الإتيانُ فالعربُ تقُولُ: نصرتُ بلد كذا، إذا أتيتهُ؛ ولِذلِك يُسمّى المطرُ نصرًا. والنّصرُ: العطاءُ[13].

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/24.
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/75.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(9) الشهاب، عناية القاضي: 5/90، والمراغي، تفسير المراغي: 15/173.
(10) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/102.
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(12) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

والمقصود بالنّصر في الآية: إعانةُ المُقاوِم لِضدّ أو عدُوّ[1]. والمراد في الآية: من يُعينني أو يمنعُني من عذابه إن عصيتُهُ.

4) ﴿تَخۡسِيرٍ﴾: أصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذَلِكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانًا. والخاسِرُ: الَّذي غُبِنَ في تجارته، ومصدرُه: الخَسارَةُ والخُسْرُ. كِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي: نقصته، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غيرَ مُرْبِحَةٍ[2]. والتَّخْسِيرُ: الإهلاك[3]، وقيل: الإبْعادُ من الخَير[4]. والمقصود بالتَّخسير في الآية: مَصْدَرُ خَسِرَ، إذا جعله خاسرًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جـوابُ الحكمةِ في الـــرَّدِّ على الـطّـاعـنـين هو هديُ الصّالحين ونجاةُ المؤمنين

تبيِّن الآيةُ موقفَ صالحٍ عليه السلام في الرَّدِّ على قومه فيما قالوه: يا قوم أخبِروني عن حالي معكم إنْ كنتُ على برهانٍ وبصيرةٍ من ربي مالِك أمري، وآتاني من قِبَلِه رحمةً خاصَّة من عنده جعلني بها نبيًّا مُرسَلًا إليكم؛ فمَنِ الَّذي يدفَعُ عنِّي عذابَ اللّهِ تعالى لوِ استجبتُ لكم وعصيتُه، أي لا أحدَ يدفع ذلك عنِّي في هذه الحال، فلا أبالي إذًا بقطع رجائكم فيَّ، ولا بما أنتم فيه من شكٍّ وريبٍ في أمري، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ من الخَيرِ.

فالآيةُ الكريمةُ تُصوِّر تصويرًا بليغًا ما كان عليهِ صالح عليه السلام من إيمانٍ عميقٍ باللّه تعالى، ومن ثباتٍ على دعوته، ومن حرصٍ على طاعته سبحانه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (خسر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/212.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، والمراغي، تفسير المراغي: 12/54 - 55، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/234.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المحاوراتُ تقومُ على الأجوبةِ المتقابلةِ، لا على عطفِ الجوابِ على الجواب

لَمّا رفضَ قومُ صالحٍ دعوتَهُ، وارتابوا منهُ في الآية السّابقةِ بقولهِمْ: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 62] كانتْ هذهِ الآية جوابًا لمقالتهِمْ تلكَ على طريقةِ المحاورات[1] والمقاولات؛ لذلكَ فصلَ ولمْ يَعْطِفْ، وهي طريقةٌ عربيةٌ وأسلوبٌ ذائعٌ في القرآنِ الكريم، وهي استئنافٌ بيانيٌّ مؤسَّسٌ على سؤالٍ مُقَدَّرٍ في ردّهِ على تكذيبهِم وتعريضهِم بهِ، فبعدَ أنْ أظهَروا ما في نفوسهِمْ منْ مقالتهِمُ الحمقاءِ وريبتهِمُ الشّنعاءِ[2]؛ جاءَ الرَّدُّ بفعلِ القولِ عاريًا عنْ حرفِ العطفِ مجرَّدًا منهُ.

بلاغةُ البدءِ بالنِّداءِ بأداة البعيدِ:

تنبيهُ المخاطَبين وتحريكُ مشاعرِهم لِفَهْمِ مضمونِ الخطابِ

ابتدأ صالحٌ عليه السلام قولَهُ بالنّداءِ في قولهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ قصدًا إلى طلبِ إقبالِ أذهانهِم ليعوا كلامَهُ، وتنبيهًا إلى أنّ الآتي من القولِ من الأمورِ المهمّةِ ذاتِ الشّأنِ والحُظوةِ والاعتبارِ[3]، واخْتِيرت أداةُ نداء البعيد لتنبيه القوم على خطورةِ مضمون الخطابِ، فإنَّ نداءَ المخاطَب من شأنه تحريكُ همَّتِه، وإثارةُ مشاعره للانتباه، واستعمالُ أداة البعيد يدلُّ على أنَّهم كانوا في بُعدٍ شعوريٍّ وعقليٍّ عن فهم المراد.

نكتةُ اختيارِ لفظِ (قَوْم):

استنزالٌ لطائرِ النُّفورِ وجلبٌ لمشاعرِ القرابة

اختارَ صالحٌ عليه السلام لفظَ (قَوْم) في ندائهِم قَصْدًا إلى التّخفيفِ من غُلَواءِ نُفورهِم وشِدَّةِ إعراضهِم مذكِّرًا بأنّهُ منهُم؛ فقدْ كانَ مَرجُوًّا عندهُم، وأنّهُ لا يبتغي من دعوتهِ إلّا الخيرَ والصّلاحَ لهُم[4].وفيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.

تحريكٌ للعلاقةِ النَّسَبيَّة وصلةِ القرابة، ودلالةٌ على التَّحبُّبِ والتَّودُّدِ والحَدَبِ والحنانِ[1]، وهذا شأنُ منْ يدعو بدعوةِ اللّهِ وطريقِ عبادته؛ فقدْ خاطبَ الحقُّ سبحانهُ خيرَ الخلقِ بقولهِ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

نكتةُ الإضافة لياء المتكلّم المحذوف:

في إضافة لفظ (قَوْم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوف، مزيدُ تأكيدٍ لهذه المعاني المذكورة، مع بيانِ أنَّه حريصٌ عليهم حرصَ الإنسانِ المنتمي إلى قومه، كأنَّه يقول لهم: أنتم قومي فكيف أخْذُلُكم وأغْدِرُ بكم وأُضْلِلكُم عنِ الصَّواب؟!

الانتماءُ برهانُ النَّصيحةِ

بلاغةُ الاستفهام في الآيةِ:

ابتدأ صالحٌ عليه السلام كلامَهُ بعدَ النّداءِ بالاستفهام ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ تنبيهًا وتحذيرًا لهمْ، وتقريرًا لما جاءَ بهِ، ولسانُ حالهِ أنْ قدْ رأيتُمْ وعَلِمتُمُ الحالَ الّتي أنا عليها[2]، ووطّأ كلامَهُ بطريقِ الاستفهام قصدًا منهُ إلى أنْ يثيرَ أفكارَهُمْ وأنظارَهُمْ وأنْ يتفكّروا وصولًا إلى الحقيقةِ بطريقِ التّدرّجِ والتّسلسلِ؛ فإنَّ التّدرّجَ حليفُ النّجاحِ والطّفرةَ حَليفة الفشلِ.

التّنبيهُ توطئةً وتدرّجًا لإغراءِ الفكرِ والنّظرِ وصولًا إلى الحقيقةِ

دلالةُ الاستفهام:

دلَّ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على معنى طلبِ الإخبارِ، أيْ: أخبروني[3]، وهو تقريرٌ مستعملٌ لمنْ يكونُ على حالٍ يجحدُ معهُ الخبرَ[4] الأكيدَ المؤيَّدَ بالدّلائلِ والبراهينِ كما هو حالُ صالحٍ عليه السلام في كونهِ على بَيّنةٍ وبرهانٍ منْ ربّهِ، أي: إنْ كنتُ على برهانٍ واضحٍ وكنتُ مرسَلًا منهُ تعالى برحمةِ الهدى والنّبوّةِ، ولمْ يظهرْ لكمْ ذلكَ،

التّعريض بمن لم ينفعه تأمُّله ولم يوصِلْه إلى صدقِ دعوتِهِ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 12/58.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.
(3) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/158، والسخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/386.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.

فلستُ أُلزِمكُمْ بأنْ تُذعِنوا وتصدّقوا بما تكرهونَ منْ أمرِ دعوتي إيّاكم، وفي ذلكَ تعريضٌ بهمْ؛ فإنّهم لو تأمّلوا تأمُّلًا خاليًا منَ الكراهيةِ والعنادِ، لَظَهرَ لهمْ صدقُ دعوتهِ جليًّا واضحًا[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ الثّاني:

الإشـــارةُ إلى المعـاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة

حُذِفَ المفعولُ الثّاني للفعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وهو على معنى: هل أعصيه معَ ما أنا عليهِ من البيِّنةِ والبرهانِ؟! وهو مُسْتَدَلٌّ عليهِ منْ قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾، ثمَّ في الكلامِ محذوفٌ بعدَ تقديرِ المفعولِ الثّاني واكتمالِ الجملةِ على تقديرِ: أرأيتُمْ كذا وكذا! أيَضرُّني ما أنتمْ عليهِ من الشّكّ؟ أو أيُمكِنُني طاعتُكُمْ وأنْ أوافقكُمْ لما تريدونَ[2]، وفي الحذفِ دلالةٌ على المعنى من النَّظم، وهو أمارةُ الإيجاز، وبلاغةُ المجازِ.

بلاغةُ استعمالِ المجازِ:

العلمُ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ

التّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ منْ بابِ المجازِ، ومعناهُ: طلبُ الإخبارِ عنْ حالتهمُ العجيبةِ؛ فيكونُ وجهُ المجازِ أنَّ العلمَ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ، والإبصارِ بهِ وصحتهُما؛ لذا عبّرَ عنْ ذلكَ بالصّيغةِ الدّالةِ على الطّلبِ[3]، أي: أخبروني بالحالِ إن كنت على بيِّنةٍ من ربِّكم!

بلاغةُ اختيارِ ﴿إن﴾ دونَ (إذا):

مقتضى الحكمةِ خطابُ المخالِفِ بلُطفِ العبارةِ استنزالًا له واستدراجًا لفكرِه

اختارَ النَّظمُ أسلوبَ الشّرطِ بأداةِ ﴿إن﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ مُؤْثِرًا إيّاها على (إذا)، والفرقُ بينهُما أنَّ ما اختارهُ مُؤذِنٌ بعدم تحقُّقِ الوقوعِ والتيقُّنِ منه، فيما تستعملُ (إذا) لما قُطعَ بحصولهِ وكثُرَ وقوعُهُ[4]، وهو اختيارٌ دقيقٌ؛ فإنَّ منْ أرادَ الإقناعَ تنزّلَ معَ خصمهِ فيما يدّعيهِ، فإنّهمْ لمّا ادَّعَوا صوابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50 - 51.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/176.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/421.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/75.

منهجِهِمْ خاطبهُمْ خطابَ الظّنِّ لا القطعِ موافقةً لِهَواهُمْ، وتَلطُّفًا بهمْ رجاءَ اقتناعهِمْ، وتَرْكِ ما همْ عليهِ من الضّلالِ، واستنزالًا لطائرِ عنادهِمْ.

وتعبيرُه ﷻ بالأداةِ ﴿إن﴾ معَ يقينِه بأنّهُ على المحجّةِ البيضاءِ، وأنَّ أمرهُ محقَّقُ الوقوعِ؛ وأنّهُ جازمٌ فيه؛ فَلأنّهُ ساقَ خطابَهُ على زعم الجاحدينَ[1]؛ فذهبَ معهُمْ في اعتقادهِمُ الزّائفِ افتراضًا، ورعايةً لحسنِ المحاورةِ، وإبعادًا لهمْ عنِ المكابرةِ؛ لإقامةِ الحُجّةِ عليهِمْ، ولسانُ حالهِ يقولُ: ها أنا تابعتكُمْ وعصيتُ ربّي، فمنْ يمنعُ عنّي عذابَ اللّهِ[2]؟

كما أنَّ التَّعبيرَ بالأداةِ ﴿إن﴾ مقابلةٌ لهمْ بخطابِهِمُ الدّالِّ على الشّكِّ منْ ثلاثةِ أوجهٍ: الأوّلُ: ﴿قَدْ﴾ الدّالةِ على التّوقّعِ دونَ التّحقيقِ، والثّاني: التّعبيرُ بالرّجاءِ في قولهِ تعالى: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾، والثّالثُ: التّعبيرُ بالرّيبِ وهو أخصّ من الشّكِّ[3]، فمنْ كانَ هذا خطابهُ فَحَرِيٌّ أنْ يقابَلَ بمثلِ ما جاءَ بهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تمكُّنُ أهلِ الحقِّ إيماءٌ إلى زعزعةِ أهلِ الباطلِ في الحُجَّةِ والبرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ عن حالةِ صالحٍ ﷺ المستبصِرَةِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، وفي هذا التّعبيرِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كنايةٌ عن شدّةِ التّمكُّنِ من الهدى والبيانِ والاستقرارِ فيهِ؛ فالمهتدونَ متمكِّنونَ تمكّنَ المستعلي على الشّيءِ المستشرفِ على منْ دونه[4]، كما أنَّ فيه إشعارًا برسوخِ إيمانِه القائمِ على الحُجَّةِ والبيِّنةِ لا الاتِّباعِ والتَّقليدِ، فهو إيماءٌ إلى أنَّ قومَه ليسوا متمكِّنين من حُجَجِهم، ولا قائمين على أدلَّةٍ مقنعةٍ لهم أو لغيرِهم.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/408، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361 - 362.
(4) الشربيني، السراج المنير: 3/180، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/48.

غرضُ تنكيرِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

الاحتراسُ عن إرادةِ بيِّنةٍ بعينها وتوجيهُ القصدِ إلى الحِجاجِ الخَطابيِّ

جاء لفظُ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ نكرةً ومعناها البيانُ والبصيرةُ والبرهانُ[1]؛ تعريضًا بقوم صالحٍ ﷺ، فإنّ المرءَ إذا كانَ على أدنى بينةٍ وأقلِّ برهانٍ، فلا يَحسنُ أن يتّخذَ طريقَ الضّلالِ طريقًا، بلْ مآلهُ هدايةُ ربّ العالمينَ إلى طريقهِ القويم، ولو جاء بها معرفةً فقال: (إن كنت على البيِّنة) لالتفتَ الكلامُ إلى بيِّنةٍ بعينِها، ممّا يُوحي بأنَّهم طلبوا بيِّنةً وهو أجابهم عنها، وهذا غير مراد، بل المراد بينةٌ تُثْبِتُ صدقَه ﷺ بقَطْعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخر.

معنى الحرف ﴿مِّن﴾:

مجيءُ البيِّنة من عند الله تعالى دليلُ صدقِ الرَّسول

أفاد الحرف ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ معنى ابتداءِ الغايةِ، أي: بيِّنة نازلةٌ أو كائنةٌ من عند اللّه تعالى، منتهيةٌ إليَّ، ففي ذكر معنى الابتداء حجَّة على أنَّه ﷺ مرسَلٌ من ربِّه تعالى، وأنَّه قوّاه بالبينة لتكون شاهدَ صدقٍ على كونه رسولًا حقًّا.

فائدةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ:

إبانةُ الحقِّ وإقامةُ الحجَّة من مقتضيات الرُّبوبيَّة امتنانًا وإرشادًا

في اختيارِ لفظةِ الرّبوبيّةِ وإيثارِها على الألوهيّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فائدةٌ وهي إظهارُ الامتنانِ منهُ تعالى على عبادِه، فهو المحسِنُ إليهم الرّفيقُ بهم، وهو مالكُهُم ومتولّي أُمورِهم[2]، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ رعايةَ العبادِ في إبانةِ الحقِّ لهم، وإقامة الحجَّة عليهم من مقتضيات ربوبيّته ﷻ، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يُرشدهم إلى الحقِّ.

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ المتكلِّم:

شرفُ الإرسالِ منَّةُ الرَّبِّ على الخلقِ

أُضيفَ لفظُ الرّبِّ إلى ضميرِ المتكلّم في قولِه تعالى: ﴿رَّبِّي﴾ لتشريفِ نبيِّ اللّه صالح ﷺ وتكريمه، فهو الخالق المدبر الرازق

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/140.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

المرشد والهادي إلى سواء السَّبيلِ، وهو الذي أنعم على عبادِه بالبيّناتِ والهدى، فأرسل رسولَه لإقامةِ الحجَّة على قومه، فهي البيِّنة من الرَّبِّ ﷻ لا منه ﷺ، فنكتةُ الإضافة تكمُنُ في إقامة الحجة على أنَّ الإرسال من لوازم ومقتضيات الرّعاية والعناية الربّانيَّة.

بلاغةُ ترتيبِ الجملِ في الآيةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ جملتانِ استهلّهُما بكونهِ على بينةٍ، وثنّاهما بإتيانِ الرّحمةِ منهُ تعالى ولم يعكسْ؛ وذلك للآتي:

البَدْءُ بالعدلِ وهو إقناعٌ ثمّ أردفهُ بالفضل وهو إكرامٌ

الأول: هذا التّرتيبُ مؤسَّسٌ على الإقناعِ العقليّ للمخاطَبينَ؛ فبدأهُ بالعدلِ وهو إقناعٌ، ثمَّ أردفهُ بذكرِ فضلِ الحقِّ سبحانهُ على عبادِه بمحضِ إرادتهِ وسبقِ علمه واقتضاءِ حكمته.

الثّاني: الجملةُ الأولى أسبقُ زمنًا وطبيعةً من الثّانية؛ فإنَّ كونهُ على بينةٍ أسبقُ منْ إيتائِه الرّحمةَ الّتي فسّرها الكثيرُ من المفسّرينَ[1] بالنّبوّةِ والرّسالةِ وما انضافَ إليها منْ لوازمها كالوحي؛ لأنَّ النّبوةَ لا تكونُ عنْ جهلٍ بلْ تكونُ عنْ بينةٍ وبرهانٍ سابقَيْنِ لها.

الثّالث: تقديمُ البيّنةِ على الرّحمةِ منْ بابِ التّرتيبِ بينَ الخصوصِ والعموم؛ فالبيّنةُ أخصّ من الرّحمةِ؛ فإنَّ البيّنةَ على صدقِ دعوتهِ داخلةٌ في جملةِ الرّحمةِ بهِ؛ فمنْ أوتيَ البيّنةَ فهو في رحمةِ اللهِ[2]، ومنْ لم يؤتَ أصابهُ العنتُ واللأواءُ.

معنى الحرفِ (منْ):

إيتاءُ الرّحمةِ ابتداءً منه تعالى دليلٌ على تشريفِ المقصودِ بها

حرف (منْ) في قولهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ابتدائيٌّ؛ فمعنى ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ﴾، أي: آتاني من جهتهِ رحمةً[3]، وهي المفسَّرةُ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/184، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/25، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/576.

بالنّبوةِ والرّسالةِ والتّفضيلِ، وفي ذكر ابتداءِ إنزالِ الرَّحمة إضمارٌ لغايتِها وهي كونها نازلةً على نبيِّ اللّه صالح ﷺ، فهو المقصود دون غيرِه، فهي تلوِّح بمعنى الاختصاص والاعتناءِ به دون سِواه، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

إيتاءُ النّبوةِ شرفٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ ورحمةٌ عامَّةٌ للخلقِ

في تقديم الجارّ والمجرورِ على الاسم في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ دلالةٌ بلاغيَّةٌ؛ فإنّهُ لمّا كانت الرّحمةُ هيَ النّبوةُ والرّسالةُ الّتي اصطفيتُ بها - والكلامُ لصالح ﷺ - رحمةً للجميع[1]؛ فإنَّ إيتاءها خلقَهُ أوْ واحدًا منهمْ مقصورٌ عليهِ سبحانهُ لا غيرهُ؛ فالتّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ، وفي ذلك بالغ التَّشريف والتَّكريم، وعظيم التَّبجيلِ والتعظيم، كما أنَّ في هذا التَّقديم سببًا سياقيًّا، فإنَّ الكلامَ في الآية في سياقِ قدرتِه تعالى وعظمتِه لا في سياقِ رحمتِه؛ فتقدّمَ المتعلّقُ وتأخّرتِ الرّحمةُ[2].

كما أنَّه كان الأحسن أن يقع ضمير الجلالةِ عقب فعل ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾؛ ليكون تقييدُ الإيتاء بأنه من اللّه مُشيرًا إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى؛ إذ لولا ذلك لكان كونه من اللّه تحصيلا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاء خاصا، ولو أوقع منه عقب رحمة لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة، أي عن أن يقال: وآتاني رحمته، كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: 21]، أي: ورحمتنا لهم، أي: لنعظهم ونرحمهم[3].

سرُّ التّعبير بلفظِ ﴿رَحْمَةً﴾ وغرضُ تنكيرِها:

اشتمالُ الرَّحمةِ النّبوةَ والرّسالةَ والهدايةَ والإسلامَ؛ فهي لفظٌ واحدٌ شاملٌ لمعانٍ كثيرةٍ

جاءَ لفظُ الرّحمةِ منكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾، ومعنى الرّحمةِ: النّبوةُ، ويَحْتَملُ الرّسالةَ، ويَحتملُ الهدايةَ، ويَحتملُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 12/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111 - 112.

الإيمانَ والإسلامَ، ويَحتملُ تلكَ المعاني جميعًا، وكلّها داخلٌ في معنى الرّحمةِ؛ فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ أوردها بصيغةِ التّنكيرِ لتشملَ المعاني المذكورة جميعًا[1] لما تعطيهِ النّكرةُ من معنى العموم، ومعنى الإفضالِ، فهذه رحمةٌ فكيف بالرَّحمةِ الاستغراقيَّة، وهذا كشفٌ عن عظيم الشُّكر والحمد الذي ملأ قلب صالحٍ عليه السلام.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

سياقُ آيةِ نوحٍ في الرّحمةِ فقدَّمَها، وسياقُ آيةِ صالحٍ في اللهِ تعالى فقدّمَ المتعلّقَ

في قوله تعالى في قصّةِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28] تأخَّر ذكرُ الجارِّ والمجرور، بينما تقدَّم في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ الآيتين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّهُ - وإنْ كانت الآيتانِ قولينِ متساويينِ لنوحٍ وصالحٍ عليهما السلام لأُمَّتيهما - قدَّم وأخَّر جريًا على سياقِ كلِّ آيةٍ؛ فإنَّ آيةَ نوحٍ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ [هود: 28] جوابُ كلامٍ مشتملٍ على أفعالٍ متعدّيةٍ لمفعولينِ لمْ يفصلْ بينهُما بالجارِّ والمجرورِ وهيَ قولهُ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27] و﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ [هود: 27] و﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: 27]، فكذلكَ لم يفصلْ بينَ فعلِ الإيتاءِ والرّحمةِ بالجارّ والمجرورِ[2].

أمّا موضعُ آيةِ صالحٍ عليه السلام فقد تقدّمهُ قولهُ تعالى: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ فقد حيلَ بينَ كانَ وخبرِها - الّذي هو بمنزلةِ المفعولِ[3] - بالجارِّ والمجرورِ[4] فكذلكَ فعلَ في قولهِ: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فتناسبا من هذهِ الجهةِ.

ولمّا كانَ سياقُ قصّةِ نوحٍ عليه السلام جاريًا في الرّحمةِ ومتعلّقاتِها بقولهِ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 12/58.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/756، والأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/263.
(3) الخليل، الجمل في النحو، ص: 73.
(4) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 144.

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ [هود: 28] منْ نحوِ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ [هود: 28]، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28]، وكلّها تعودُ على الرّحمةِ؛ قدّمَ الرّحمةَ على الجارِّ والمجرورِ، أمّا آيةُ صالحٍ ﷺ فسياقُها في اللّهِ تعالى ﴿رَّبِّي﴾، ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنْهُ﴾، (الضّميرُ في عصيتهُ) فاقتضى السّياقُ تقديمَ ﴿مِنْهُ﴾ على الرّحمةِ، والهاءُ يعودُ عليهِ سبحانهُ[1].

معنى الفاءِ في الآيةِ:

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ للعطفِ والتَّرتيبِ وهو أشهرُ معانيها[2]؛ فهي "لترتيبِ إنكارِ النُّصرةِ على ما سبقَ منْ إيتاءِ النبوةِ وكَوْنِه على بينةٍ منْ ربهِ على تقديرِ العصيانِ حسبما يعربُ عنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾"[3]، على افتراضِ أن يوافقهم لما يريدون من صدهم عن دعوة التوحيد، أو أن يتوانى ويتنازل عن أمر اللّه تعالى بالتَّبليغ، فيترك أمرَ اللّه تعالى رغبةً في إرضائهم.

من تركَ اللهَ تركه جميعُ النّاس ومن لاذَ به استغنى عن جميعِ النّاس

بلاغةُ الإيجازِ في ربطِ الشَّرطِ بجوابهِ:

قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ جوابٌ، وشرطهُ قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ومعانيه – وإنْ كانَ ذا لفظٍ قليلٍ – وفيرةٌ، وهذا شأنُ الإيجازِ؛ اللّفظُ القليلُ ذو المعاني الكثيرةِ، ففيهِ معنى الإلزامِ والجدلِ على وجهِ التّفصيلِ فإنْ كانَ إنكاركُمْ دعوتي ونبوّتي فلا ضيرَ؛ فإنّي على يقينٍ وبيّنةٍ بما جئتُ بهِ؛ فلا أعدلُ عنْ يقيني إلى شكّكُم وريبكُمْ، وإنْ كنتمْ ترونَ ذلكَ فلا تتوقّعوا منّي ذلكَ معَ علمكمْ أنَّ يقيني يخوّفني منْ عذابِ اللّهِ إنْ عصيتهُ؛ فلا أحدَ ينصرُني ويتولاني عندَ ذلكَ[4]، فانظرْ إلى هذهِ المعاني الجمّةِ

براعةُ الحِجاجِ اجتماعُ قوّةِ الإقناعِ وإعطاءِ البدائلِ وإلزامِ الخصمِ بالتّسليمِ

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 515.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 213.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.

الواردةِ كيفَ جمعَها في لفظٍ موجزٍ هو قولهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ وهو جوابُ الشّرطِ.

غرضُ الاستفهام البلاغيُّ:

الاستفهام المشمولُ بمعنى النّفي أبينُ في العموم وأرسخُ في الإنكار

(فمَنْ) في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ استفهامٌ دالّ على الإنكارِ[1] والجحدِ في أنَّ النّصرَ محجوبٌ عنهُ إنْ تخلّى عنْ دعوتهِ، وفي ذلكَ ذَمٌّ ولومٌ وقدحٌ للمخاطبينَ لفداحةِ ما يريدونَ منهُ عليه السلام، والمعنى: أنّي لا أجدُ نصيرًا وظهيرًا منْ أحدٍ إنْ عصيتهُ سبحانهُ في تبليغِ الرّسالةِ، وقعدتْ همّتي عن ذلكَ؛ فيكونُ استفهامًا على معنى النّفي[2]، وهو أبلغ في نفي عموم النّاصرين له من دون الله تعالى، وفيه إقامة الحجَّة بعد إبانةِ المحجَّة.

بلاغةُ التّضمينِ:

ضُمِّن الفعلُ (ينصرني) معنى الإنجاء والمنع على تقديرِ مجازٍ بالحذفِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَنصُرُنِي﴾ معدًّى بحرف ﴿فَمَن﴾ لتضمينه معنى الإنجاءِ؛ أي: مَن يخلصني وينجيني من عذابِ اللهِ وعقابهِ[3]؛ لأنّ عصيانهُ موجبٌ لعذابهِ، أو معنى المنع؛ أي: مَن يمنعُني منَ اللهِ، أي: من عذابهِ وعقابهِ إنْ عصيتهُ في تبليغِ رسالتهِ، وفترتُ عن بلاغِ أوامرهِ وأحكامهِ[4]، وكلا التَّضمينين فيه مجازٌ بالحذفِ وتقديره: (فمن ينصرني من عذاب الله إن عصيته).

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الربوبيّةُ في موضعِ الإنعام والإحسانِ، والألوهيّةُ في موضعِ تربيةِ المهابة

اختار النَّظم الكريمُ لفظَ الرّبوبيّةِ في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ثمّ أتبعهُ في السّياقِ نفسهِ بلفظِ الألوهيّةِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾، فهُما وإن كانا في سياقٍ واحدٍ إلّا أنّ موضعَ الرّبوبيّةِ جاءَ في الإنعام على عبدهِ بالبيناتِ، وهو شأنُ المحسنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/59، والشوكاني، فتح القدير: 2/576.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/204، والقِنَّوجي، فتح البيان: 6/206.

المربّي، أمّا لفظُ الألوهيّةِ فجاءَ بالاسم الأعظم[1]؛ لأنَّه في مقام التّخويفِ والتّرهيبِ، ومقتضى الألوهيَّة زرع المهابة في قلوب العبادِ، فجاء النَّظم باللَّفظِ الأنسبِ لكلِّ معنًى.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

إن فُرِّط في جانب الأمانةِ العُظمى فإنَّ عـذابَ الله لا يُمنع وعقابه لا يُدفع

في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنّ المعنى: فمَن يمنعُني من عذابِهِ أو عقابِهِ إن عصيتهُ فلا يكونُ لفظُ الجلالةِ مدخولًا لحرفِ الجرّ؛ لأنّهُ سبحانهُ ليسَ محلًّا للحوادثِ؛ فهو على حذفِ مضافٍ مقدّرٍ[2] وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامهُ، وهو جائزٌ شائعٌ كثيرٌ في العربيةِ[3].

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ دونَ إضمارِه:

دفـــعُ تـوهـم الطَّمع فيما لا طمعَ فيه

لَمّا تقدّمَ لفظُ الرّبّ مظهَرًا في قولهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ أن يُضمرهُ عندَ ذكرهِ كرةً أخرى بقولهِ: (منه)، لكنّ النَّظم أظهر لفظ الجلالةِ في قولهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المقامَ يقتضِي التّهويلَ والتّخويفَ، وإظهارَ المهابةِ فعبّرَ بالاسم الأعظم[4]، فوجب التَّفريق بين أمرين، أحدهما: إرسال اللّه نبيَّه ﷺ وهذا مقتضى الرُّبوبيَّة، والآخر: ما تقتضيه مخالفة الأمر الإلهيّ من المعصيةِ، فذلك ما تقتضيه الألوهيَّة، فكأنَّه يُخاطب قومَه بقولِه: إن الذي خلقني وربّاني ورزقني فأرسلني إليكم، لا مطمع ولا منجى من عقابِه إن عصيته فأخللتُ بالأمانة؛ فهي على غرارِ قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: 3].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِنْ﴾ دونَ (إذا):

مـا يـحسُـن في مواضعِ الإقناعِ لا يـحسُـنُ في مواضع الإمتاع

آثر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ استعمالَ ﴿إِنْ﴾ الدّالةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.
(3) حذف المضاف كثير شائع في العربية، وذكر ابن جني شيوعه في القرآن الكريم فأوصل مواضعه إلى ثلاثمائةِ موضع، يُنظر: الخصائص: 2/454.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

على عدم تحقُّقِ الوقوعِ، دونَ (إذا) الدّالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ، وذلك أنَّ وقوعَ المعصيةِ من قبل صالح ﷺ هو عبارةٌ عن افتراضٍ يفترضه بين القوم؛ للتَّنزُّل معهم إلى فهم العلاقةِ مع اللّه تعالى، في أداء الأمانة وتبليغ الرِّسالة، فكان الأنسب في ذلك استعمال ﴿إِنْ﴾، فإنَّ ما يحسُنُ في مواضعِ إقناعِ الخصم، لا يحسُن في سياقِ إمتاع المؤمنِ.

بلاغةُ الحذفِ:

يعمدُ المؤمنُ الحصيفُ إلى اختيارِ ألفاظِه وانتقاءِ كلماته

ما يقتضيه ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ترتُّب المعصية على طاعةٍ مقابلةٍ لها، والتقدير: إن أطعتكم فيما تريدون فعصيته فيما كلَّفني به، فهو مجازٌ بالحذفِ؛ لكنّهُ حذفَ الطّاعةَ المفترضةَ تنزيهًا لنفسهِ وتبعيدًا لها منْ ذلكَ الفعلِ الشّائنِ، ذَيَّل ذلكَ مؤكّدًا أنّه إنْ فعلَ ذلكَ فلنْ يزدادَ إلّا خسارًا.

بلاغةُ حذفِ الجوابِ:

مضامينُ النَّفسِ تُظهرها إشاراتُ الكلام

يقتضي قولُه تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ جوابًا، وهو هنا محذوفٌ لدلالةِ الكلام السّابقِ عليهِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهو محذوفٌ بعد ذكر الشّرطِ، مقدّمٌ في اللّفظِ؛ فكأنّ صالحًا ﷺ أرادَ إلهابَ نفسهِ وتهييجَها بأنْ قدّمَ منعَ النّصرةِ عنهُ على عصيانهِ، ومَنْ كانَ هذا حالهُ فلا يحصلُ منهُ عصيانٌ أبدًا.

معنى الفاءِ:

نتيجةُ طاعةِ أهلِ الأهواءِ خسارةٌ حتميَّةٌ ورداءةٌ معميَّة

دلَّتِ الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ على مجموعةٍ من المعاني الاصطلاحيَّة، التي قد تلتقي في المعنى العام، وهذا إيرادها:

الأوّل: السّببيةُ، وهو منْ معانيها المشتهرةِ في لسانِ العربِ لا سيّما في عطفِ الجملِ والصّفاتِ[1]، والمعنى أنَّ نهيكُمْ عنْ دعوتي لعبادتهِ

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 4/1986.

سبحانهُ وتوحيدهِ تسبّبَ عنهُ أنّكمْ ما زدتموني غيرَ تخسيرٍ[1]، وذلك في حالِ تحقُّق المعصية.

الثاني: التّرتيبُ منْ غيرِ مهلةٍ، وهو معنًى شائعٌ فيها[2]؛ فقدْ رتّبَ زيادةَ الخسارةِ على المعصيةِ على تقديرِ حصولِها افتراضًا، معَ كونهِ ﷻ على بيّنةٍ منْ ربّهِ، وأنّهَ قدْ أوتيَ النّبوةَ على وجهِ القطعِ والتّحقيقِ[3].

الثّالث: التّفريعُ أو (الفاء الفصيحة)؛ فقد فرّعَ هذهِ الجملةَ على ما سبقَها منْ جملةِ الاستفهامِ الإنكاريّ على تقديرِ: إن كانَ ذلكَ هو مطلبكُمْ فما دعوتكُمْ لي إلّا تطلعٌ منكم في خيبتي وخسراني[4]، وهذا هو معنى الفاء الفصيحة، فيكون التَّفريع فيه تقدير محذوف شرطي، وهو شرط الفاء الفصيحة عند جمهور البيانيِّين.

بلاغةُ القصرِ:

دلَّ النّفيُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ على قطعِ طمعهِم في تركهِ ﷻ لما هو عليه من البيّناتِ والهدى، وموافقتهم لما هم عليهِ من الإعراضِ والكفرِ والضّلالِ[5]؛ فهو بمنزلةِ الإخبارِ القاطعِ بعدم متابعتِهم لما يريدون، جاء على طريقِ النَّفي المتبوعِ بالاستثناءِ لاشتمالِه على الدَّعوى والدَّليل، فقام النّفي بدفع أي زيادةٍ تكون له إلّا شيئًا واحدًا وهو التَّخسير، وهذا أبلغ من الإخبار بعدم طاعته لهم.

طمعُ الكفّار إنّما يكون في المتخاذلين الضُّعفاء لا المناصرين الأقوياء

سرُّ استعمالِ مفردةِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

لعلّ سائلًا يسألُ عن معنى الزّيادةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾: أهيَ زيادةُ شيءٍ على شيءٍ موجودٍ أصلًا أو هيَ إحداثُ

التّهكّمُ بالمخاطَبِ الجاهلِ إشارةً بعد الإقناعِ عبارةً مطلبُ حكيمٍ وكلامُ عليمٍ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

أمرٍ ليسَ موجودًا في الأساسِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ الزّيادةَ هنا هي حصولُ حالٍ لمْ يكنْ موجودًا، ووجودهُ زيادةٌ على حالِ الإنسانِ؛ كأنَّه قال: فإنْ اتّبعتكُمْ وعصيتُ اللّه لمْ أزددْ إلّا خسرانًا[1]؛ خسرانَ الأعمالِ الصّالحةِ الّتي حصّلتها فيما مضى من عهدٍ؛ فتكونُ طاعتهُمْ خسارةً على خسارةٍ كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: 65].

وفي استعمال هذه المفردة ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ تهكُّمٌ بهم، إذ مقتضى الزِّيادةِ في الظّاهر خيرٌ يعمُّ صاحبَه، فلمّا أتى بهذه المفردة منفيَّةً؛ ظنَّ السّامعون أنَّه سيقول لهم: فما تزيدونني خيرًا، لكن أتى بذكر الخسارةِ ليعلم السّامعون أنَّ كلامَهم يُحيط به التَّباب والخسار من كلِّ جانبٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

أفصحُ الصِّيغِ ما كانت معاضدةً لمعاني المفردات

عُبِّرَ بصيغة الفعل المضارعِ: ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ الدّالِ على التّجددِ والاستقبالِ؛ لتقويةِ معنى التَّهكُّم في القوم، أي: إن كان هناك تجدُّدٌ في الزيادة فهو خسارةٌ تتلوها خسارة، وفيه إشارةٌ إلى إمكانِ جريانِ الحكم في كلّ زمانٍ، فإنَّ أمثالَ قوم صالحٍ لا تعدمُ أنْ تجدهُمْ في كلّ زمانٍ في صدّهمْ عن الدّعوةِ إلى اللّهِ تعالى؛ ولأنَّ زيادتهُمْ المفترضةَ أمرٌ مستقبليّ.

نكتةُ استعمالِ ﴿غَيْرَ﴾ وموقعها الإعرابيّ:

استُعملَتْ (غَيْرَ) لما فيها من الاستثناءِ المشوبِ بالنَّفي

لفظةُ ﴿غَيْرَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ دالةٌ على الاستثناءِ في المعنى، وهيَ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ الزّيادةِ، أيْ: فما تزيدونني إلّا تخسيرًا[2]، واستعمالُ ﴿غَيْرَ﴾ أقوى في الدّلالةِ منْ (إلّا) لأنهّا استثناءٌ مشوبٌ بالنّفي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(2) العكبري، التبيان: 2/704.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ مادةً وصيغةً:

المؤمن حصيفٌ نبيهٌ أن يقع في دركـات الباطلِ الموصل

تحتملُ لفظةُ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ أنْ تكونَ بمعنى التّكذيبِ، والمعنى فما يزيدني عملكُمْ وصدّكمْ عنْ دعوتي إلّا التّكذيب؛ فإنَّ التّكذيبَ موصلٌ لخسارتهِمْ وسببٌ لها[1]، وهذا المعنى من مضاعفات الخسارةِ، فإنَّ معصيةَ اللّه تعالى في بعضِ ما يطلبون، لن تحقِّق رضاهم، ولن تُؤتي ثمار الهداية، بل ستزيدهم طمعًا لينتقل من كونه عاصيًا إلى المعصية العظمى وهي ترك الأمانة، فهم يريدون أن يُجْعَلَ خاسرًا بأن يبطلَ اللّهُ عمله، ويتعرض لسخطهِ وغضبهِ تعالى[2]، وهو ما يُنبئ عن فهم صالحٍ ﷺ لمطالبِ قومه، وأنَّهم إنَّما يطلبون منه ما يقودُه إلى مرادِهم بطريق التَّدرُّج في خطوات الباطلِ.

وتحتملُ لفظةُ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ أنْ تكونَ دالةً على النّسبةِ؛ فالعربُ تقولُ: فسّقتهُ إذا نسبتَهَ إلى الفسقِ، وهو أن تنسبَ المفعولَ إلى أصلِ الفعلِ وتُسمّيَه بهِ[3]، وفجّرتُهُ إذا نسبتَهُ إلى الفجورِ، وكذلكَ خسّرتهُ إذا نسبتهُ إلى الخسرانِ[4]، وتحتملُ النّسبةُ أن تكونَ منهُ ﷺ لهم، أو منهُم لهُ[5] ﷺ، أي: فما تزيدونني غير أن أتّهمكم بالخسارةِ، أو فما تزيدونني إلّا باتِّهامي بأني خاسر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيّنةُ والبرهانُ والحجّةُ:

البـيّـنـةُ دلـيـلٌ واضحٌ، والبرهانُ شـهـادةٌ بصحّةِ البيِّنة، والحجّةُ استقامةُ المقصد

البيّنةُ من البيانِ بمعنى الظّهورِ والانكشافِ والوضوح[6]، وهو الحالُ الّتي يكونُ عليها الأنبياءُ ومنهمْ نبيّ اللّهِ صالحٌ ﷺ لتكليفهِ

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/158.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(3) الأستراباذيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/94.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/393، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/368.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/70.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

بالنّبوّةِ المعبّرِ عنها بالرّحمةِ؛ فإنّهُ قائدُ قومهِ إلى طريقِ اللّهِ وطريقِ الحقّ، فالوضوحُ منْ شرائطِ النّبوّةِ؛ لذلكَ عابَ الحقُّ سبحانهُ في آياتهِ رؤوسَ الكفرِ المضلّينَ كقولهِ في فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98].

أمّا البرهانُ فهو القولُ الّذي يشهدُ بصحّةِ الأمرِ المَدْعُوِّ إليهِ وهو حجّةٌ قاطعةٌ للعلم بالشّيءِ[1]، وهذا لا يكونُ إلّا تاليًا للنّبوّةِ.

أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ والمضي فيهِ على سَنَنٍ مستقيم... مشتقةٌ منْ معنى الاستقامةِ في القصدِ؛ حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدهِ"[2] فالحجّةُ والبرهانُ إنْ كانا متقاربينِ معَ البيّنةِ فإنّ البيّنةَ أسبقُ وضعًا لمنْ يُصطفى بالنّبوّةِ، وهو أنْ يكونَ على بيّنةٍ ثمَّ يأتي بالبراهينِ والحججِ إنْ احتيجَ إلى ذلكَ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 97.

(2) العسكري، الفروق اللغوية: 233 - 234.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»